الدرس الصوتي العربي: النشأة وعلاقتها بعلوم اللغة.

فاطمة كجعوط
المركز الجامعي - غليزان-

الملخص:

يروم هذا البحث إبراز جهود علمائنا العرب في التأصيل للدرس الصوتي العربي، ذلك أنّ المبحث الصوتي ارتبط منذ نشأته بالقرآن الكريم، وما يتطلّبه من نطق سليم، وتوخٍّ للمعنى المقصود، فكان المبحث الصوتي لذلك ماثلاً في كلّ مؤلّفاتهم من نحووصرفٍ وتجويدٍ وقراءاتٍ، وعلم الكلام والأصول، وهذا إدراكًا منهم لأهمية البعد الصوتي في دراسة اللّغة.

الكلمات المفتاحية: الدّرس الصوتي العربي، التراث جهود، علماء اللّغة، علم اللغة الحديث.

Résumé :

Notre travail consiste à éclairer les efforts des chercheurs et scientifiques arabes dans les études phonétiques arabes ; étant donné que ces cours sont liés au Saint Coran, qui ne nécessitent pas seulement une prononciation correcte mais aussi une bonne compréhension.

Les recherches phonétiques font continuellement l'objet d'étude de tous les œuvres vu l'importance de la dimension phonétique dans l'étude d'une langue.

Notre travail consiste à traiter les points suivants :

Mots clées: Etude phonétique arabe, Les efforts, Le patrimoine, les linguistes, la linguistique moderne (récente)

مقدّمة:

لقد ارتبط الدّرس الصوتي منذ نشأته بالقرآن الكريم، لأنّه كلام الله المقدّس، فكان حبّ النّاس لقراءته وتدبّر معانيه وتعلّمه وتعليمه دافعا لهم إلى دراسة لغته، والبحث عن أسرارها، وخصائصها ووضع قواعد تحفظها من الزّيغ خاصّة لما دخل الأعاجم للإسلام، واتّسعت رقعة الدّولة الإسلامية «وأخذ اللّحن يتسرّب إلى الألسنة بعد أن كان اللّسان العربي عندهم صحيحا محروسا، لا يتداخله الخلل ولا يتطرق إليه الزلل إلى أن فُتِحت الأمصار، وخالط العرب غير جنسهم ... فاختلطت الفرق وامتزجت الألسن»[1]، ولذلك فقد حظي الجانب الصوتي باهتمام خاص لدى الدّارسين الأقدمين على اختلاف توجهاتهم العلمية منهم القرّاء، ومنهم النّحاة، ومنهم علماء الأصول ومنهم الفلاسفة.[2]

وهذا ما جعل علماء اللّغة العربية على اختلاف مشاربهم وتنوّع مجالاتهم يخصّون الصّوت بمباحث هامّة في ثنايا كتبهم، على الرّغم من أنّنا لا نجد مؤلّفا مخصوصًا يتناول الدّرس الصّوتي كعلم قائم بذاته، إلّا أنّنا نجده مبثوثًا في ثنايات كتبهم. لارتباط المبحث الصوتي الوثيق بما عالجوا من قضايا نحوية وصرفية ودلالية وبلاغية.

ومعلوم أنّ بدايات الدّرس الصوتي العربي مرتبطة بالقرآن الكريم ارتباطا مباشراً، وتنسب أوّل محاولة صوتية إلى أبي الأسود الدّؤلي (ت68هـ) الّذي وضع رموزاً تقي من الوقوع في أخطاء نطقية أثناء قراءة القرآن الكريم، فيُروَى أنّه سمع قارئًا يقرأُ "أنّ الله بريء من المشركين ورسوله" بكسر لام رسوله، فاستدعى كاتبًا وقال له: «إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطةً فوقه على أعلاه، وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف ... »[3].

وانطلاقًا من هذه القصّة فإنّ ما يمكن قوله هو أنّ بداية الدّراسة الصوتية العربية كانت وصفية، ومعنى هذا أنّ الدّراسات الصّوتية العربية من المباحث الّتي نجح فيها العرب نجاحا كبيرا، خاصة من حيث المنهج المعتمد في دراستهم للأصوات، فهم اعتمدوا على الملاحظة الذاتية للظواهر الصوتية[4].

ليأتي بعد أبي الأسود نصر بن عاصم (ت98ه) ويرتب الحروف العربية وينقطها، ويقدّم للمسلمين عامّة عملاً جليلاً، يبعدهم عن اللّبس في قراءة الحروف، وتتجلّى أهمية عمله في الجمع بين الصّوت وصورة الحرف، فأعجم المصحف ومن ثمّ تعويض نقط أبي الأسود الدؤلي بصورة صغيرة للحرف، فكانت الضمّة واوًا صغيرة، والكسرة ياءً صغيرة، والفتحة ألفاً صغيرة.[5]

الخليل بن أحمد الفراهيدي: يعدّ الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175ه) من أبرز علماء القرن الثاني للهجرة، الّذين قدّموا أعمالا قيّمة في مجال الدّراسات اللّغوية، ولعلّ أهمّها تحديد اوزان الشّعر وبحوره وتصنيف معجم العين الّذي حاول فيه استيفاء كلام العرب.

فكان أن انفرد في حقبة تاريخية مبكرة جدًّا من عمر الحضارة العربية الإسلامية برؤية واعية وعميقة لطبيعة الأصوات اللّغوية، الأمر الّذي جعله يخرج إلى الوجود أوّل معجم عربي ... رتّب مواده على مخارج الأصوات، ولذلك وُسِمَ بالعين نسبة إلى أوّل صوت حلقي حسب ترتيب الأصوات عند الخليل.[6]

ومن أحسن ما عرض له العرب في دراسة الأصوات ما نجده عند الخليل من وصف للجهاز الصوتي، وهو الحلق والفم إلى الشفتين وتقسيمه إيّاه إلى مناطق ومدارج يختصّ كلّ منها بحرف أو مجموعة حروف، وأشار إليه من ذوق الحروف لبيان حقيقة المخرج، فقد هدي بذكائه المتفوق في ذلك إلى مقاييس صحيحة أقرّ كثيرا منها علماء الأصوات المحدثون.[7]

وتجلت براعة الخليل في الأبجدية الصوتية التي وضعها وفق ترتيب مخارج الأصوات،انطلاقا من الأعمق في جهاز النطق وصولا إلى مخرج الشفتين فقال: "العين والحاء والهاء والغين حلقية،نسبة إلى االحلق والقاف والكاف لهويتان نسبة إلى اللهاة، وهكذا يستطرد في تصنيفه للأصوات حسب مخارجها حتى ينهيها بقوله والياء والواو والألف والهمزة هوائية نسبة إلى الهواء في مجراه"[8]،وقد قسم الأصوات إلى نوعين حروف وحركات،الحروف الصحاح وحروف العلة باستثناء الهمزة فقال: "في العربية تسعة وعشرون حرفا صحاحا لها أحياز ومدارج وأربعة هوائية وهي: الياء والواو والألف اللينة والهمزة،لأنها هاوية في الهواء لا يتعلق بها شيء"[9]،وقد حقق الخليل هذه النتائج متعمدا على منهج قائم على الملاحظة والتجريب فاهتدى إلى مخارج الأصوات، قال الليث :"وإنما كان الخليل ذاوقه إياها (يقصد الأصوات)أنه كان يفتح فاه بالألف، ثم يظهر الحرف،نحو آبْ، آثْ، آحْ، آعْ، آغْ فوجد العين أدخل الحروف في الحلق"[10]،وقد سميت هذه الطريقة "ذوق الحروف"[11] ويتفق الدارسون أن هذه الطريقة منفردة في تحديد الأصوات والوقوف على مخارجها، ومن أحسن ما عرض له الخليل في دراسة الأصوات ما نجد من وصف للجهاز الصوتي، وهو الحلق والفم إلى الشفتين، وتقسيمه إياه إلى المناطق ومدارج يختص كل منها بصوت أو مجموعة أصوات،وما أشار إليه من ذوق لبيان حقيقة المخرج، وما ذكره يرتبط أساسا بعملية إنتاج الأصوات وقد سار في استنباط مخارج أصوات العربية سيرا استقرائيا ابتداءً من أقصى الحلق،فالحلق مرورا بالفم فالأسنان وانتهاءً بالشفتين،وهذا "يدل على ذوق حسي فريد وصبر وقدرة على الإستنتاج حتى توصل إلى ما توصل إليه إبداعا وابتكارا،دون الاستعانة بأي جهاز علمي، إذ لا جهاز أنذاك، وهوما لم يثبت العلم التشريحي الحديث بكل أجهزته الدقيقة ومختبراته الضخمة خلافا له، فيما يبدو يسيرا"[12].

إن الخليل في ذوقه الصوتي قلب أصوات العربية فوضعها ضمن مخارج صوتية معينة بحسب مدارج مقدرة من أقصى الحلق حتى إطباق الشفة في الميم، وقد صنف هذه المخارج فجعلها عشرة وهي كالآتي:

1/الحلق :ع-ح-ه-خ-غ.

2/اللهاة : ق-ك.

3/شجر الفم :ج-ش-ض.

4/مستدق طرف اللسان : ص-س-ز.

5/نطع الغار الاعلى : ط-د-ت.

6/اللثة :ظ-ث-ذ.

7/ذلق اللسان : ر-ل-ن.

8/الشفاه : ف-ب-م.

9/الجوف : و-ا-ي

تاريخ التحكيم 15 ماي 2017

10/ والهمزة[13] هوائية

وقد قدم الخليل صرحا معبدا لمن جاء بعده ليواصل العمل في المجال الصوتي فقد استطاع في معجم العين حصر مفردات اللغة العربية، مستعملها ومهملها من خلال التقليبات في ابنية الحروف وقاده ذلك الى تقديم دراسات صرفية وصوتية ومعجمية رائدة.

سيبويه: واصل مسيرة أستاذه الخليل، وقد انطلق في دراسته للأصوات العربية من منطلق صوتي بحت، وهو أثر تجاوز الحروف المتماثلة والمتقاربة والمتجانسة في عملية الإدغام، وقد تحدّث عن الإبدال والمضارعة في الصوامت، كما تحدّث عن الاتباع والإمالة في الحركات (المصوتات) وكان ما كتبه سيبويه عن مخارج الأصوات العربية وصفاتها هو الأساس الّذي اعتمد عليه جلّ الباحثين والعلماء العرب فيما بعد.[14]

وكان من إبداعات هذا العالم الفذّ تقسيمه للحروف العربية إلى حروف أصول وحروف فروع، وهذا يتّفق إلى حدّ كبير مع حديث الصوتيين المحدثين عن الوحدات الصوتية والصور الصوتية[15].

وكان "كتاب "سيبويه حافلا بوقفات عديدة تعد أدق تصنيف وأوفى دراسة لمخارج الأصوات وصفاتها، فقد ذكر ستة عشر مخرجا صوتيا وفصل الحديث فيها، مخالفا الخليل في عملية ترتيب الأصوات فغير رتبة اللام والراء والنون، "فرق بين الحروف الأصول والفروع كما فرق بين الفروع من حيث الاستعمال مشيرا بذلك إلى ما يعرف الآن بالفرق بين الوحدة الصوتية الأساسية والصورة الصوتية وهوما يعبر عنه علم الأصوات الحديث بالفونيم والألفون على التوالي"[16]،وتحدث عن كيفية حدوث الأصوات ذاكرا صفاتها من مجهور ومهموس وشديد ورخوما بين الشديد والرخو والمكرر والمحرف والغنة والمنفتحة والمطبقة ..... وفي ذلك يقول: "فالمجهور حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت، فهذه حال المجهورة في الحلق والفم ...وأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه"[17]، ويقول أيضا: "ومن الحروف الشديد وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه...ومنها الرخوة ...أجريت فيها الصوت إن شئت."[18]

وأحصى سيبويه المخارج وجعلها كالتالي:

- أقصى الحلق: مخرج الهمزة، والهاء والألف.
- أوسط الحلق: مخرج العين والحاء.
- أدنى الحلق: الغين والخاء.
- أقصى اللسان وما يليه من الحنك الأعلى: مخرج القاف.
- مؤخر اللسان وما يليه من الحنك الأعلى: مخرج الكاف.
- وسط اللسان ووسط الحنك الأعلى: مخرج الجيم والشين والياء.
- أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس: مخرج الضاء.

حافة اللسان إلى الطرف وما فوقها: مخرج اللام.

من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا مخرج النون

ما بين طرف اللسان وفويق الثنايا أدخل في ظهر اللسان لانحرافه إلى اللام مخرج الراء.

ما بين طرف اللسان وفويق الثنايا: مخرج الزاي والسين والصاد.

طرف اللسان وأصول الثنايا: مخرج الطاء والدال والثاء.

طرف اللسان وأطراف الثنايا: مخرج الظاء والذال والثاء.

باطن الشفة السفلى وأطراف الأسنان العليا: مخرج الفاء.

ما بين الشفتين: مخرج الباء والميم والواو.

من الخياشم: مخرج النون الخفيفة.

أما الصفات فقد قسمها على النحو التالي:

الشدة والرخاوة وما بينهما واللين والهوى.

الجهر والهمس.
التفخيم والترقيق.
- وجعل الشداد أربعة أقسام:
- ما يمتنع معه النفس.
- المنحرف.
- الأنفي.
_ المتكرر.[19]

إضافة إلى هذا، فقد وقف سيبويه في كتابه على عدد من الظواهر الصوتية أهمها:

ظاهرة الوقف: وقد بين فيه أسسه وقوانينه، وقواعده وأنواعه، سواء أكان ذلك بزيادة حرف أم بغير زيادة، ومع أحرف العلة أو مع غيرها من الأحرف الصامتة.

ظاهرة الإمالة: وقد صنفها إلى مطردة وشاذة، وبين مواضعها في الكلام وصلتها بحروف العلة.

ظاهرتا المماثلة والمخالفة: وهما ظاهرتان صوتيتان لهما أسسهما وقوانينهما الخاصة، ولكن سيبويه لم يفرد لأي منهما عنوانا خاصا وإنما درسهما تحت عنوان الإبدال، فتناول المماثلة الكلية والجزئية كما تناول الفرق بين المماثلة والمخالفة.

- أبو الفتح عثمان بن جنّي (ت292هـ): والّذي أخذت الدّراسة الصّوتية في القرن الرّابع على يديه مرحلة الاستقلال بما كتبه هذا الإمام العظيم في "سرّ الصناعة" من بحوث صوتية لم يكتف فيها بجمع آراء سابقيه، وإنّما كانت له في هذا الكتاب كما في غيره، إضافات وتوضيحات وشروح، جعلته المصدر الوافي لمن يريد معرفة التفكير الصوتي عند العرب، كما أشار إلى ذلك الأب هنري فليش.[20]

ومنه كان ابن جنّي أوّل من أفرد المباحث الصوتية بمؤلّف مستقل، ونظر إليها على أنّها علم قائم بذاته،الذي استوفى فيه الكلام على حروف العربية، مخارجها، صفاتها، وأحوالها، وما يعرض لها من تغيير يؤدّي إلى الإعلال أو الإبدال أو الإدغام أو النّقل أو الحذف، والحرف بين الحرف والحركة، والحروف الفروع المستحسنة والمستقبحة، ومزج الحروف وتنافرها، إلى غير ذلك من مباحث بوّأته المقام الأوّل في هذا الفن، فعُدَّ بحقٍّ رائد الدّراسات الصوتية[21]، وهو يقرّ ذلك إذ يقول: «وما علمت أنّ أحدا من أصحابنا خاض في هذا الفنّ هذا الخوض، ولا أشبعه هذا الإشباع، ومن وجد قولاً قاله، والله يعين على الصواب بقدرته».[22]

فكانت لابن جني بذلك ملاحظات علمية قيمة أبرزها تشبيهه جهاز النطق الإنساني بالناي ويتضح ذلك في قوله "وقد شبه بعضهم الحلق والفم بالناي فإن الصوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجا، كما يجري الصوت في الأنف غفلا بغير صنعة فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة وراوح بين أنامله،اختلفت الأصوات،وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه،فكذلك إذا قطع الصوت في الحلق والفم بالاعتماد على جهات مختلفة كان سبب استماعنا هذه الأصوات المختلفة ونظير ذلك أيضا العود"[23]،وكذلك عالج ابن جني علاقة الصوت بالدلالة موضحا ذلك في قوله:" فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها فباب عظيم واسع ... وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها، فيعدلونها ويحتذونها عليها ... من ذلك قولهم خضم وقضم فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ، والقضم لليابس، نحو قضمت الدابة شعيرها ونحو ذلك ... فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس، حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث"[24]

ومن أهم المباحث التي عرض لها ابن جني في كتابه سر صناعة الإعراب:
- عدد حروف الهجاء وترتيبها، ووصف مخارجها.
- بيان الصفات العامة للأصوات، وتقسيمها باعتبارات مختلفة.
- ما يعرض للصوت في بنية الكلمة من تغيير يؤدي إلى الإعلال أو الإبدال أو الإدغام أو النقل أو الحذف.
تحدث عن صفات الأصوات، وعن الفصاحة في اللفظ المفرد.
- وكان ابن جني أول من استعمل مصطلحا لغويا للدلالة على هذا العلم وهو علم الأصوات، ولذلك اعتبر ابن جني رائد هذه الدراسات.[25]

ابن سينا: وفي المضمار نفسه ظهرت ثلة من العلماء عرفوا بالفلاسفة الأطبّاء أمثال الفرابي، الكندي وابن سينا، وهذا الأخير كان له عمل فذّ تمثّل في رسالته "أسباب حدوث الحرف" وهذه الرسالة بالإضافة إلى مقدّمتها مقسّمة إلى الفصول الستّة الآتية:

الفصل الأوّل: تحدّث فيه عن سبب حدوث الصّوت.

الفصل الثاني: جعل عنوانه "سبب حدوث الحرف" وفيه يتحدّث عن مخارج الأصوات ومحابسها.

وخصّص ابن سينا الفصل الثالث لتشريح الحنجرة واللّسان.

وفي **الفصل الرّابع** يعالج الحروف العربية ويبّن كيفية صدور كل حرف منها ويصف العملية العضوية مع كلّ حرف وصفا مفصلا.

أمّا **الفصل الخامس** فقد خصّصه لأصوات سمعها في لغات أخرى غير العربية مثل السّين الزائية.

وأنهى ابن سينا رسالته بفصل فريد بيّن فيه كيفية إنتاج هذه الأصوات بحركات غير نطقية.[26]

الدّرس الصّوتي العربي وعلاقته بعلوم اللّغة:

لقد كانت انطلاقة الدّرس الصّوتي العربي مع بداية الدّرس اللّغوي عامة والعناية به، ولم يعالجوا الأصوات علاجا مستقلًّا، ولا في مؤلّفات مخصوصة، وإنّما تناولوه ضمن مباحثهم اللّغوية الأخرى أهمّها:

1- النّحو: فبالنّسبة للنّحاة فقد خصّصوا بعض الأبواب في كتبهم النّحوية لهذه الدّراسة، حيث اعتبروها تمهيدًا أو مدخلًا لدراسة ظاهرة الإدغام، والحديث عن قواعد الإعلال والإبدال، وقد عالج سيبويه الإدغام في نهاية مؤلَّفِه "الكتاب" وعالج الأصوات قبل معالجة الإدغام، فتطرّق إلى الحروف العربية، ترتيبها ومخارجها في نطاق حديثه عن الإدغام، وقد علّل ذلك بقوله: «إنّما وضعت لك حروف المعجم بهذه الصّفات، لنعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه، وما تبدله استثقالا كما تدغم، وما تخفيه وهو بزنة المتحرك ...».[27]

ومن الّذين ساروا على هذا المنهج، المبرّد في كتابه "المقتضب" إذ عالج الإدغام في الجزء الأول، وقدّم له بدراسة الأصوات ومخارجها، كذلك أنهى الزّجّاجي كتابه "الجمل" بالحديث عن الإدغام، ومهّد لحديثه ببعض الأفكار الصوتية، وأنهى الزّمخشري كتابه "المفصّل" بالإدغام وقدّم بين يديه دراسة للأصوات.[28]

وأحسن دليل على ذلك الاهتمام بالظّاهرة الصّوتية هو أنّ الأساس الأوّلي المعوّل عليه في وضع المعايير التّأسيسية للنّحو العربي، كان الصّوت من حيث هو ظاهرة فيزيولوجية قابلة للملاحظة المباشرة ... وأوضح صورة لذلك قصّة أبي الأسود الدّؤلي (ت68ه) مع كاتبه حينما همّ بوضع ضوابط لقراءة القرآن، إذ قال له: «إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ...» فالملاحظ من هذا القول أنّ النّظام القواعدي في مرحلته الجنينية نشأ في رحاب معاينة الظّاهرة الصّوتية، إضافة إلى مصطلحات المميزات الوظيفية (حركات الإعراب) في اللّسان العربي أساسها الجانب الفيزيولوجي من الظاهرة الصوتية.[29]

فقد أدرك النّحاة العرب قصور فهمهم نحو العربية وصرفها، مالم يدرسوا أصواتها، فكانت عنايتهم بها شديدة، اقتضتهم اكتناه مخارجها وجهازها المصوت وصفاتها العامة والخاصة، فأتوا بزادٍ وفيرٍ ماثل في عشرات المصطلحات الصوتية التي ترمي إلى جليل ما قدّموا وغزير ما خلّفوا.[30]

وممّا لا شكّ فيه أن كثيرًا من أصول النّحو العربي تقوم على أسس صوتية، وذلك كالتّصور الخاص بـــ "الحرف" والحرف المتحرّك والحرف السّاكن، وكمعاملة حروف المدّ واللّين معاملة السّواكن ... وكالعلاقة التي تصوّرها النّحاة بين الحرف والحركة وبينه وبين السّكون، وكتفسير كثير من الآثار الإعرابية التي تطرأ على بعض الكلمات.[31]

2- علم التجويد والقراءات: لقد أسهم علم التجويد والقراءات القرآنية بقدر لا يُجحَدُ في هذا الميدان، وأصبح كلّ كتاب للتّجويد يشتمل إلى جانب قواعد التّلاوة على فصل في مخارج الحروف وطريقة نطقها وصفاتها، كما فعل ابن الجزري في كتابه "النشر" الّذي خصّص سبع صفحات فيه لهذا البحث وحده، كذلك تردّدت في كتب التّجويد مصطلحات صوتية مثل الاشمام، والاختلاس، والمدّ والتّفخيم، والتّرقيق...[32]

وقد أضاف علماء القراءات القرآنية تفصيلات صوتية، فهم قد سعوا إلى وصف تلاوة القرآن حسب القراءات المختلفة، فسجّلوا خصائص صوتية تنفرد بها التلاوة القرآنية[33]، فكان بذلك لأهل القراءات والتّجويد حظٌّ وافرٌ في دراسة الأصوات العربية وأصنافها

وأحكامها من حيث الإدغام والإظهار والاخفاء والوقف والابتداء والمدّ اللّفظي، والمدّ المنفصل والمدّ السّاكن العارض، وأحكام الهمز والتّسهيل والروم والإشمام وترقيق الأصوات وتغليظها.[34]

وجدير بالذّكر أنّ العرب عندما نزل القرآن الكريم فيهم كانوا يتكلّمون اللّسان العربي، ولكن هذا اللّسان كانت له أوجه عدّة ولغات متنوّعة (لهجات) قد رعاها الرسول عليه الصّلاة والسّلام إذ قال: «إنّ هذا القرآن قد نزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسّر منه»[35]، والمقصود بالأحرف السّبعة ليس الفوارق النّاجمة عن استخدام ألفاظ بعينها، وإنّما هي تلك الفوارق النطقية التي تميز بين قبيلة وأخرى، كميل إحداهما إلى تسهيل الهمز وميل الأخريات إلى تحقيقه وإثباته، وجنوح إحداهما إلى الإمالة والأخرى إلى إشباع الضمائر وغير ذلك من الأمور التي هي من شأن علم الصوتيات.[36]

3- الصرف: اهتمّ الصّرفيون بدراسة الأصوات لأنّهم يعلّلون لبعض الصيغ الّتي تدخل الأصوات في نطاق دراستها، كالإبدال الصرفي، والإعلال والإدغام والحذف والإمالة وغيرها من المسائل التي كانت تدخل مادة الصرف على الرّغم من كونها صوتية.[37]

فقد حاول الصّرفيون محاولاتهم الأولى ماثلةً في كتاب سيبويه أن يصفوا ما يطرأ على بنية الكلمة المعربة من تغيرات إمّا في تصرفاتها المختلفة من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث، وتصغير ومبالغة، وماض ومضارع وأمر...إلخ أوعند وقوعها في درج الكلام في سياقات صوتية معينة كالإدغام والوصل إلى غير ذلك من المباحث الصوتية.[38]

4- البلاغة: أمّا علماء البلاغة فكانت لهم بحوث تتعلّق بالأصوات وتبحث في فصاحة اللّغة مشترطين خلوالألفاظ من التّنافر الصوتي، حين تأليف الأصوات، فكانت دراسة بن سنان الخفاجي (ت 446ه) في كتابه "سرّ الفصاحة" والرّماني (ت 484ه) في كتابه "النكت في إعجاز القرآن" مثلا بارزا على أهميته الجانب الصوتي في الدّراسات البلاغية.

ومعظم ما شغل البلاغيون من مباحث الأصوات يتعلّق بتنافر الأصوات وتآلفها، واستتبع هذا بالضّرورة حديثا عن مخارج الحروف، وهل للقرب أو البعد المخرجي دخل في التّنافر أو التآلف، إذ يقول الرّماني: «والمتلائم في الطّبقة العليا القرآن كلّه، والسّبب في التّلاؤم تعديل الحروف في التأليف، فكلّما كان أعدل كان أشدّ تلاؤما، وأمّا التّنافر فالسّبب فيه ما ذكر الخليل من البعد الشّديد أو القرب الشّديد ... ومخارج الحروف مختلفة فمنها ما هو أقصى الحلق، ومنها ما هو أدنى من الفم، ومنها ما هو في الوسائط بين ذلك ...»[39].

فكان بهذا لأصحاب البلاغة ملاحظات نافعة في تنافر الأصوات وائتلافها وعناية بالتّنغيم intonation لشديد اهتمامهم بأساليب الخطاب وحسن البيان.[40]

5- صناعة المعاجم: وقد تناول أصحاب المعاجم بعض المشكلات الصوتية، إمّا في مقدّمات معاجمهم، أوفي ثنايا المادة اللّغوية المجموعة، ويبدوا الاهتمام بهذا النّوع من الدّراسة في المعاجم التي رتّبت صوتيا،واتّبعت نظام التّقليبات كالعين للخليل، أو اتبعت نظام التقليبات فقط كـ "الجمهرة" لابن دريد.[41]

6- العروض: أمّا أهل العروض فقد أغنوا البحث الصوتي بدراسة أوزان الشعر العربي، وموسيقاه وبيان مواضع النّبر stress ومقاطعه[42]، فالعروض الّذي وضعه الخليل يمدّنا بمعلومات صوتية هامّة عن تصوّر "المقطعية" العربية إذ أنّ الخليل لم يقم نظامه العروضي على أساس الحرف متحرّكا أو ساكنا، بل لجأ إلى نظام من "الأسباب"، "الأوتاد"، "والفواصل" اعتبرها العناصر التّي تشترك في تكوين التفاعيل.[43]

7- علم الكلام والأصول: إذ لا يمكننا إغفال عناية علماء الكلام والأصوليين والمعتزلة عناية فائقة بالكلام المنطوق، وبيان مكنوناته، وما النطق إلاّ أصوات مسموعة يُظهِرُها اللّسان، وتشارك بها أعضاء النطق الأخرى، فكانت عنايتهم بالحروف باعتبارها حروفا لفظية دالة على حروف فكرية منبعها العقل موضع إثراء البحث الصوتي.[44]

8-جهود الفلاسفة الصوتية: ساهم الفلاسفة المسلمون في إثراء الدرس الصوتي فأولوه عناية خاصة وسجلوا فيه جهودا معتبرة، وتجلى ذلك في جهود كل من ابن سينا (428ه) في رسالته "أسباب حدوث الحروف"، وكذلك الفارابي (339ه) وإخوان الصفا، وابن رشد (595ه) وتمثل اعتنائهم بالجانب الطبيعي الفيزيائي فتحدثوا عن النبر والتنغيم واعتمدوا مصطلحات خاصة كالقرع والقلع والرطوبة واليبوسة.

وقد شملت دراسة الفارابي الكثير من الظواهر الصوتية إبتداءاً من علم الأصوات الطبيعي، الذي حاول فيه أن يقف على ماهية الصوت ومصدره وكيفية إنتقاله وكيفيته السمعية وصولا إلى دراسة التنغيم وأقسامه وخصائصه ثم انتقل الى الحديث عن علم الأصوات النطقية، ذاكراً أعضاء النطق وتحدث عن طبيعة الحروف وخصائصها، فضلاً عن حديثه عن المقطع الصوتي والنغم، وقد تمكن من تحديد سبب حدوث الصوت[45] بقوله :"هو مماسة الجسم الصلب جسماً آخراً صلباً مزاحم له عن حركته"[46]، وتحدث عن انتقال الصوت مشيراً الى الطريقة التي ينتقل بها الهواء بعد حمله للصوت فقال: "اما كيف يتأدى إلى السمع فإن الهواء الذي ينبو من المقروع، هو الذي يحمل الصوت فيحرك مثل حركته الجزء الذي يليه فينقل الصوت الذي كان قبله ويحرك الثاني ثالثا فيقيل ماقبله الثاني، والثالث رابعاً يليه، فلا يزال هذا التداول من واحد الى واحد حتى يكون آخر ما يتأدى إليه من أجزاء الهواء هو الهواء الموجود في الصماخين، وهواء الصماخ ملاق للعضو الذي فيه القوة التي بها يسمع ويتأدى ذلك إلى القوة السامعة فيسمعه الإنسان"[47] .

وكذلك ذهب المذهب نفسه إخوان الصفا الذين عدوا قرع الجسم الصلب لجسم صلب آخر مثله سببا لحدوث الصوت، ووسموه بالقرع فقالوا: "ولربما إحتك بعض الأحجار ببعض فيحدث من بينهما قرع في الهواء، والصوت قرع يحدث من الهواء إذا صدمت الأجسام بعضها بعضاً، فتحدث بين ذينك الجسمين حركة عرضية تسمى صوتاً، بأي حركة تحركت، ولأي جسم صدمت ومن أي شيء كانت، وهذه الأصوات تنقسم قسمين: حيوانية وغير حيوانية ... وجميع هذه طبيعية وصناعية لا يحدث فيها صوت ولا يسمع لها حركة إلا من تصادم بعضها ببعض وامتزاج بعضها ببعض، فإنه لولا أن الزامر ينفخ في النادي والمغني يحرك الوتر، والناقر ينقر الحجر لم يوجد لذلك صوت ولا يسمع له حس"[48]

وخلاصة البحث الصوتي عند الفلاسفة المسلمين من خلال هذه النصوص تكشف عن مدى الدقة والفهم لنوع الصوت ومصدره واعتنائهم بالجانب الطبيعي الفيزيائي للصوت.

- ملامح المنهج الصوتي عند العرب: عرف العرب الصّوت وطبيعته، وكثير من سماته العامّة، وأثره السّمعي ومعرفتهم لكثير من مكونات جهاز النّطق، ومخارج الأصوات. كما عرفوا صفات الأصوات من همس، وشدّة، ورخاوة، على الرّغم من افتقارهم للوسائل العلمية والمختبرات الصوتية، إضافة إلى أنّهم درسوا القوانين الصّوتية من خلال وقوفهم على المماثلة والمخالفة وصورها.

واهتمّوا بالصّوت من جانبه الوظيفي، ويظهر ذلك جليا في دراستهم لقوانين التأثّر والتّأثير واستكناه ظواهر النّبر والتّنغيم وطول الصوت وقصره.

ومن ناحية المنهج: فإنّهم اعتمدوا على المنهج الوصفي الّذي تعتمده الدّراسات اللّغوية، وقد أفضى بهم إلى وصف العربية وجهازها المصوت وظواهر التّأثر والتّأثير وسواها، وقادهم إلى كثير من النتائج النّافعة.

- الاعتماد على نظام العيّنات وهو شكل من أشكال المنهج الاستقرائي syncronic في البحث.[49]

فحقيقة الأمر إذن أنّ الدّراسات الصّوتية العربية تتّسم بالأصالة وفضل السّبق، وقد عرف شيئا من هذا غير واحد من العلماء المنصفين، والباحثين المدقّقين الأجانب كالمستشرق برجستراس، وفيرث الّذي يقرّ أنّ الدّراسات الصّوتية نشأت في أحضان لغتين مقدّستين هما العربية والسنسكريتية.[50]

ونستشفّ ممّا سبق أنّ المبحث الصّوتي كان حاضرا في كلّ دراسة لغوية وماثلاً في كلّ مؤلّف عربي، ذلك أنّ العرب أدركوا أهمية الدّراسة الصّوتية في معالجة القضايا اللّغوية، وهو مفهوم يكاد يقارب مفهوم علماء اللّغة المحدثون للصّوت على أنّه خطوة أولى في أي دراسة لغوية، لأنّ دراسة الأصوات تتناول أصغر وحدات اللّغة وهو "الصّوت".

قائمة المصادر والمراجع:

1- محي الدّين بن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح. طاهر زاوي ومحمود الطناجي، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1963، ج1، ص05.

2- أحمد حساني، مباحث في اللّسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، 1993، ص61.

3- علي بن يوسف القفطي جمال الدين أبو الحسن، انباه الرواة على أنباه النحاة، تح. محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1406ه/1986م، ج1، ص40.

4- ينظر: عصام نور الدّين، مقالات ونقاشات في اللّغة، دار الصّداقة العربية، بيروت، ط1، 1995،ج1، ص85.

5- ينظر: عبد العالم سالم مكرم، القرآن الكريم، وأثره في الدّراسات النّحوية، مؤسسة على جراح الصباح، 1978، ط1، ص19.
6- أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، مرجع سابق، ص62.
7- أبوالفتح عثمان بن جنّي، مقدّمة في تحقيق سرّ صناعة الإعراب، تح. مصطفى السقّا، الحلبي، القاهرة، مصر، 1954، ج1، ص13.
8- الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق، د. مهدي المخزومي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1988، ط1، ج2، ص58.
9- المرجع نفسه، ج2، ص57.
10-المرجع نفسه، ج1، ص47.
11- صلاح الدين محمد قناوي، التفكير الصوتي عند العرب بين الأصالة والتحديث، دار الفكر، دمشق، سوريا،2008، ص9.
12- خليل إبراهيم العطية، في البحث الصوتي عند العرب، دار الجاحظ للنشر، بغداد، العراق، 1982، ص11
13- المهدي بوروبة، ظواهر التشكيل الصوتي عند النحاة واللغويين العرب حتى نهاية القرن 3ه، رسالة دكتوراه، جامعة تلمسان، 2001-2002،ص43.
14- عبد الفتاح عبد الحليم البركاوي، مقدّمة في علم الأصوات، درّة الغوّاص، 2004، القاهرة، ط3، ص12.
15- المرجع نفسه، ص12.
16-صلاح الدين محمد قناوي، م س، ص11
17- سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، تح: د. عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988، ج4، ص434
18- المرجع نفسه، ج4، ص435
19- ينظر: تمام حسان، اللغة العربية: معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1994، ص58.
20- عبد الصبور شاهين، التفكير الصّوتي عند العرب في ضوء سرّ صناعة الإعراب لابن جنّي، مجلّة مجمع اللغة العربية، ص22.
21- أحمد مختار عمر، البحث اللّغوي عند العرب، القاهرة، 1988، ط6، ص99.
22- أبو الفتح عثمان ابن جنّي، سرّ صناعة الإعراب، تح: حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط1، 1985، ج1، ص63.
23- إبن جني، سر صناعة الإعراب، م س، ص14-16.
24- إبن جنى، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط4، 1990، ج2، ص157-164.
25- ينظر: نعمان بوقرة، محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، جامعة باجي مختار، عنابة، 2006، ص41-47.
26- أحمد مختار عمر، البحث اللّغوي عند العرب، م س، ص102.
27- سيبويه، الكتاب، م س، ج4، ص436.
28- أحمد مختار عمر، البحث اللّغوي عند العرب، ص93
29- ينظر: أحمد حساني، مباحث في اللّسانيات، ص62.
30- خليل إبراهيم العطية، في البحث الصوتي عند العرب، دار الجاحظ للنشر، بغداد، العراق، 1982، ص04.
31- محمود السّعران، علم اللّغة، دار النّهضة العربية، بيروت، لبنان، د.ت، ص95.
32- أحمد مختار عمر، البحث اللّغوي عند العرب، ص95-96.
33- محمود السعران، علم اللّغة، ص96.
34- خليل إبراهيم العطية، في البحث الصوتي عند العرب، ص6-7.
35- ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، بيروت، 1988، ط3، ص447.
36- محمّد السيّد عزوز، موقف اللّغويين من القرّاءات القرنية الشاذة، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص20.
37- خليل إبراهيم العطية، في البحث الصوتي عند العرب، ص07.
38- محمود السعران، علم اللّغة، ص95.
39- الرّماني أبوالحسن، النكت في إعجاز القرآن، تح. محمد خلف الله، دار المعارف، مصر، ط3، 1976، ص79.
40- البحث اللّغوي عند العرب، م س، ص 96-97.
41- البحث اللّغوي عند العرب، م س، ص 94-96.
42- خليل إبراهيم العطية، في البحث الصوتي عند العرب، ص06.
43- محمود السعران، علم اللّغة، ص95.
44- في البحث الصوتي عند العرب، م س، ص 06.
45- علاء جبر محمد، المدارس الصوتية عند العرب، أطروحة دكتوراه،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2006، ص38.
46- الفارابي، الموسيقى الكبير، تح: غطاس عبد الملك خشب، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ص213.

47- نفسه، ص316.

48- رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا (القرن 4هـ)، تح :بطرس البستاني،1957،دار صادر، بيروت،، ج1، ص394.

49- أحمد مختار عمر، البحث اللّغوي عند العرب، ص108،109.

50- أحمد مختار عمر، البحث اللّغوي عند العرب، ص114.